الشيخ عباس الاعسم (١)

المتوفي ١٣١٣ هـ

هو الشاعر العالم الشيخ عباس بن الحاج عبد السادة بن الحاج مرتضى بن الحاج قاسم بن ابراهيم بن موسى بن الحاج محمد « ٢ » وهو الذي نزح الى النجف من « خليص » احدى ضواحي المدينة المنورة قبل ثلاثة قرون ، وقد لقب بالأعسم لاتصال نسبه بقبيلة « العسمان » اخذ من احدى بطون « حرب » المقيمة في الحجاز ، وقد ينسبهم بعض المؤلفين الى « زبيد » ولا يعني ذلك القبيله القحطانيه المعروفه ، وانما يريد به فخذاً من احدى بطون « حرب » يدعى « زبدي » وله ثلاث شعب احداها « العسمان » .

ولد المترجم له في النجف سنة ١٢٥٣ هـ ١٨٣٧ م ونشأ بها يتيماً فقد توفي والده في طريق الحج ودفن في الحجاز وكان المترجم له يومئذ حملا في بطن امه، ونشأ على خالية الشيخ جعفر الأعسم نجل صاحب كتاب (كشف الظلام في شرح شرايع الاسلام) ، والشيخ صادق الاعسم ، وقد عنيا بتربيته فامتهن احدى المهن الحره ، ولكن لما كان قد حصل على مواهب واستعداد اندفع يختلف على المجالس العلميه لاعلام اسرته وغيرهم وانصرف الى درس مقدمات العلوم كالنحو والصرف وغيرهما فنال حظاً كبيراً منها ثم انصرف الى دراسة الفقه الاسلامي واصوله على اعلام عصره المشاهير كالسيد مرزه حسن الشيرازي والشيخ مهدي حفيد الشيخ جعفر صاحب كاشف الغطاء ، والميرزا حبيب الله الرشتي واضرابهم

« ١ » مستل من كتاب « ادب العراق في القرون المظلمه » لصاحب البيان « ٢ » ذكر هذه السلسلة والده المرحوم القاضي الشيخ محمد الاعسم .

فذاع صيته واصبح علماً يشار اليه بالبنان .

وفي أواسط حياته انفجر بركان ادبه فمال عن المجالس العلميه الى الأندية الأدبيه ، تلك الأندية الخالدة الذكر التي انتجت دواوين عديده — فأفاض عليها بوحي شعره ماسجل فيه خواطر كانت مثار اعجاب زمرته ، ولما كانت سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ م اختار العزلة والانطواء فهاجر من النجف الى الحيرة واتصل بالسادة الاشراف « آل زوين » فكانت اكثر اوقاته تقضى في دار ضيافتهم التي كانت اهم « النوادي الادبية » يومذاك في تلك المنطقه ، وكانت محجة لكثير من ادباء النجف وشعرائها نظراً لصلة اهلها بالأدب وحرصهم عليه ، ونظراً لما كان يتمتع به الشيخ عباس من فضل ونبل وعلم وأدب ، فقد الجأه السادة الى مجاورتهم والسكنى معهم في تلك القرية فبنى داراً بالقرب منهم وسكنها ولم تزل تعرف باسمه الى اليوم .

وفي سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م بلغه — وهو في الحيرة بعد رجوعه من نفي شبلي باشا خبر وفاة طفلين له بالنجف وقد اصيبا بالطاعون الذي شمل العراق في ذلك العام فقال يرثيهما بقصيدة مثبتة في الديوان منها :

وهاتفة ناحت ولم تصدع النوى حشاها وفرخاها بحيث تراهما
فمالي لاأعطي النياحة حقها وفرخاي من عيني غابا كلاهما

لم يكن نفيه مع السادة آل زوين من حدود « الحيرة » الا بسبب خزاعة واحلافها فقد ثاروا في وجه الاتراك فاضطر امير اللواء شبلي باشا ان يجهز عليهم جيوشاً عظيمه ، وكان اذ ذاك متصرفاً في « لواء الحله » فلما استولى عليهم نفاهم عن قضاء « الشامية » ولما كان الاعسم وآل زوين من اصهار خزاعة ولهم معهم مزيد ربط جرفهم ذلك التيار فذاقوا مرارة النفي والتبعيد ردحاً من الزمن حتى ذاقوا حلاوته بموت شبلي في سنة ١٢٩٨ هـ فرجعوا الى اوطانهم .

وكان في خلال نفيه يكثر من رسائل الشوق وشكوى الفراق الى اخدانه واصدقائه واقاربه ومن بينهم ابن اخته العلامة السيد محمد سعيد الحبوبي فكتب اليه قصيدة يشوق فيها اليه ويشكو فيض اياديه عليه وهي مثبتة في الديوان واليك مطلعها :

خطرت لجدّ وشاحها بخفوق فكأنها اتشحت بقلب مشوق

وفي خلال توطنه بالحـــيره اوجد شاعراً آخر وهو الآن من المنسيين ذلك هو السيد جعفر بن السيد حسين زوين فقد نظم الشعر البديع من جراء احتكاكه بالأعسم ، واستمر حتى اخـــذ يجاري استاذه في الحلبات الأدبيه ، وقدجرت بينهما مساجلات اثبتت في مجموعة هـــذا السيد المخطوطه .

عاد الى النجف سنة ١٣٠٧ هجـ ١٨٨٩ م وبقي فيهاحتى فاجأته يد القدر في ذي القعده من سنة ١٣١٣ هـ ١٨٩٥ م وعمره ستون سنة ، وقد رأيت مكتوباً في اول ديوانه انه توفي سنة ١٣١٤ هجـ ، واقام على روحه الفاتحه ثلاثة ايام ابن اخته المجاهد العلامة السيد محمد سعيد حبوبي . .

ديوانه يحتوي على اكثر من ثلاثة الآف بيت ، ومعظمه من القسم الراقي فقد نظم في أغلب فنون الشعر كالغزل والنسيب والوصف والحماسة والتذمر من قسوة الدهر كما طرق باب التهاني والمراثي بفخامة اسلوب ورقة الفاظ ودقة معـاني وحسن ابداع ومليح وصف وقوة تصوير ، واليك شيئاً منه قوله :

لبينك قد تكدر صفو انسي ومن حزني عليك سئمت نفسي
ومن جزعي وددت بأن الاقي لـما القاه منك وقيت رمسي
أحن الى لقـاك حنين نيب تحن الى الورود بيوم خمس
كأني في هواك وانت تدري بقيـــد أدهم وبضيق حبس
اتذكر عهد انس قد تقضي بصوت مهزج وبرشف كأس
بناد تحسب الاقداح شبباً تبادى من يدي قمر بشمس
ولو عرفتك عرفان الواحي لكانوا فيك من نوعي وجنسي
بنفسي من كرام العرب ظبي له في غنجه حركات فرس
رشأ يرنو بمقلتـــه غزال يترجم غمزهـا عن نزع قوس
لو احظه نصيب وليس يجدي بهـا حـــذر ولم تمنع بترس
من الخطار يحطر من لبان بوردي البرود من الدمقس
يريك اذامشى مرتج غصن تغرد فوقـــه ورقاء جرس
لقد رقت معاطفـه فخفنا على اعطافـــه تدمى بلمس
قسا قلباً فامرضني صدوداً ولان فـــلان دمعي بعد يبس
اشاهد بالتخيل منـه وجهاً تحجب عن مشاهـدة بحس
فاخفض هيبة رأسي لديه ولست برافع للنصب رأسي
فيامن واصل الايام بعضاً ببعض في مقـاطعتي ويأسي
لو انك تبـدل الابعاد قرباً كما استبدلت عن سعدي بنحس
لتنقذ من يد البلوي بقـايا بها أثر الحيـاة بغـير غمس
ولو ان الطبيب يحس نبضي لأيقن في مماتي من مجسي
بروحي اشتري لو بعت وصلا ولو لوث الأزار بغير مكس
فما اشقى القطيعة بعد وصل وما احلى المطامع بعـد يأس
وكم خضنا لزورتك الليالي بسير يقطـع الفـلوات همس
على زيافـــة ملس زفوف بأوديـة من الهفيـات ملس
ويا أسفي عليه وغـير مجد ولو اني عضضت عليه ضرسي
قليل ان اشق عليك جيبي فمن حق الهوى ازهاق نفسي

وله ايضاً قوله :

وماهذه غزلي الوشاحين اوثق احشا بهواها حجلها وسوارها
لها علق في القلب حتى كأنني اراها بقلبي حين شط مزارها
يمثلها شوقي لعيني وان تكن تناءت عياناً عن ديارّي ديارها

وله وفيه اقتباس :

بلد طيب ورب غفور فدع الكأس بالحميا تدور
وادرها صرفاً بغير مزاج فهي صرف مزاجها كافور
هي روح وبهجة وصفاء وشفاء وفرحـــة وسرور
وهي رأد الضحى نفايح عطر ولدي غاسق الدجى هي نور

والاعسم لم يكن كباقي الشعراء المعاصرين له في جمودهم على نظم الشعر الفصيح بل جال في ميدان (الأدب الشعبي) جولات سبقت فرسانه لا من ناحية الاكثار بل من ناحية الابداع فتراه في شعره العامي يصور لك انه رجل لم يمتزج بحضارة المدن نظراً الى مافيها من الألفاظ الغريبه عن الفصيح و « الحـچه » وتراه ينطق في شعره نطق الريفي الذي لم يمتزج بسواه ، وقد سجلت له ترجمة في كتابي « الأدب الشعبي » وطائفة من شعره فيه واليك صورة منه من قسم « الموال » من نوع المسبع قوله :

يامن فلا يوم عن جثل المتيم عدل
تجتل بالأبعـاد والميت بكربك عدل
شيصير لوجان طبعك مثل طولك عدل

وآنه بمساعي الك عيب اختشي لومه
آتيك على الرأس طرفك بالرمز لومه
تشهد بدمي خـدودك ياترف لومه